فشل دعاة الانقلاب

يخطىء المصلحون الثائرون على النظم الاجتماعية أو الاقتصادية ، عندما يحاولون هدم الأسس التي ينهض عليها النظام الاجتماعي القائم الذي اشتركت في اقامته ديانات ووراثات وعقول وأجيال ومدنيات مختلفة ومتباعدة ، حتى استقرت الأوضاع على التقسيم الموجودة الآن .

قد يكون بعض هذه القيم أو الأسس نتيجة أخطاء أو تكون هي في ذاتها قيماً ممسوخة . ولكن الحياة قد تفاعلت معها فألفتها وسارت وما زالت تسير عليها . فالحرب والشر والأنانية والأثرة وما إليها من الأسس التي لا يختلف إنسان في ضررها ، كل هذه شرور لا شك فيها ، ولكنها مع ذلك من أسس الحياة التي لا يمكن محوها من التكوين الاجتماعي مهما حاول البشر أن يتخلصوا منها ، بل ان العالم كلما حاول أن يتخلص أو يعمل على الفرار منها دفعته أنانيته وطبيعة تكوينه إلى الاقتراب منها والانغماس فيها .

فالمجتمع في وضعه الحالي ، رغم ما فيه من أسس ونظم لا تطاق ، ورغم ما فيه من شرور واعوجاج ، ليس إلا آلة فيها من العيوب الشيء الكثير . ولكنها مع ذلك آلة تدور وتؤدي عملها . بل قد تكون هذه العيوب التي نراها من الأسباب الجوهرية لإدارة هذه الآلة .

فعلى الثائرين على نظامنا الاجتماعي أن يفكروا قبل أن يتفكّكوا آلة الحياة ، وقبل أن يفككوا أجزاءها ، عليهم أن يفكروا جيداً وأن يتريثوا فيما هم مقبلون عليه من هدم لا بناء بعده ، عليهم أن يفكروا هل يستطيعون أن يعيدوا أجزاء هذه الآلة سيرتها الأولى ؟

من السهل أن يمسك الطفل آلة أو ساعة فيحطم أعضاءها وتروسها . ولكن من العسير أن يعيدها ثانية إلى ما كانت عليه . فعلى المفكرين الثائرين وعلى قادة الرأي الثائرين الذين

حسبوا القدرة في أيديهم على إصلاح العالم بتغيير نظمه بما في رؤوسهم من أفكار هادمة ، عليهم أن يفكروا أولاً هل في استطاعتهم بناء عالم جديد ؟

نعم ان كل مفكر إنقلابي يستطيع أن يبني عالماً جديداً ولكن على الورق أو في خياله الحائر الثائر. من السهل أن تكون مصلحاً خلاقاً تبعث النظرية تلو النظرية لخلق عالم جديد . ولكن من المحال أن تتذاءب من خيالك الخصب الحائر . ولقد أصيب هذا العصر الذي نعيش فيه بالحيرة والتردد نتيجة الدُّوار الذي أصاب الأمم بعد حربين فتاكتين وبعد انقلابات اقتصادية واجتماعية هزّت أركان الوجود . فالأمم الآن مصابة بدوار كما يصاب المسافر في البحر بدوار يشعره بالدنوّ من الهلاك .

* * *

فمن الخطر أن تستمع الأمم وهي في هذه الحال من الدوار والقلق والحيرة إلى الآراء الانقلابية الشاذة . من الخطر أن تضع الأمم حظوظها ومستقبلها وأمانيها وقيم مدنيتها تحت سيطرة قادة لهم نزعات انقلابية هي نتيجة تفكير مريض أو وحي هاذ أو تشاؤم هادم ، فهؤلاء القادة قد أصابهم ما أصاب العالم من دوار وقلق وحيرة وتشاؤم ، ولهذا فليس من البصيرة في شيء أن يستقبل العالم آراءهم إلا كما يستقبل آراء المجنون أو المريض.

ان الحياة لا تخضع لعمل الانسان . لأن الانسان إنما هو ذرَّة في كيان الحياة نفسها . وإذا كانت الطبيعة البشرية في تغيير مستمر ، فليس هذا التغيير في طبيعة الحياة أو في قوانينها وإنما هو في مظاهرها فقط فلا يلبث هذا التغيير أن يتراجع حتى يعود من تلقاء ذاته من حيث بدأ — فالطفرات الانقلابية التي جاءت نتيجة المبادىء المتطرفة أو حرب أو حيرة اجتماعية طارئة ، لا تلبث أن تخبو وتزول . ولكن بعد أن تترك آثاراً وخيمة في الحياة الاجتماعية كالعاهات المستعصية التي تنشأ في جسم من يصاب بها في عراك عنيف .

* * *

لقد نشأت بعد الحرب العالمية الأولى نزعات سياسية واقتصادية عنيفة . فكانت البلشفية ثم النازية واستقبلتها الأمم وهي في حالة دوار أصابها بعد حرب طاحنة . فلم يكن للتفكير الهادىء من سبيل إلى هذه الأمم ، فذهبت ضحيتها ، ما في ذلك من شك .

ولقد عشنا ورأينا انهيار النزعات النازية . لقد انهارت لا لأنها نزعات ضعيفة في مادتها ، ولكنها انهارت لأنها نشأت ضعيفة هدامة لنظم الحياة المستقرة في طبيعة الكائنات . انهارت لأنها قوية بمادتها ضعيفة بروحها . انهارت لأنها نتيجة تفكير أناني مريض . أليست النازية تنفيذ دعوة الفيلسوف فريدريخ نيتشه الذي بشر بفلسفة القوة والسيطرة ؟ أوليس هذا الفيلسوف رجلاً مريضاً لا ينكر أحد أنه عاش طول حياته متنقلاً في المصحات يقاسي الآلام ، حتى قرر الأطباء أنه مجنون لا يرجى له من شفاء .

* * *

ولهذا كانت جميع آراء هذا الفيلسوف لا تخلو من أثر المرض والاعوجاج والشعور بالضعف ، فكانت وحي ألم وحيرة وحرمان . ولهذا جاءت تدعو الى ما حُرِم منه صاحبها من قوة وصحة وسيطرة . فنشأت النازية نشأة مريضة ، فدعت دعوة غير طبيعية الى السيطرة والعنف والأنانية . وجاءت والعالم في حالة دوار بعد الحرب العالمية الأولى فلم يفكر الزعماء بوعثر تفكيراً هادئاً سليماً ، بل فكروا تفكيراً متقاداً لعوامل غير طبيعية ، فكانت كارثة إذ تقررت النازية نظاماً لأمة عتيدة من أمم الدنيا ، فسارت هذه الأمة سيراً منحرفاً عن طبيعة الحياة حتى اصطدمت بحقائق الحياة الجبّارة فانهارت انهياراً قاسياً عنيفاً .

وكذلك الحال في الفاشية ظهرت في الأمة الايطالية عقب انقلاب نفسي أصاب الشعب الايطالي من دوار الحرب الماضية . فكان نظاماً مزوراً لا يستقر على طبيعة الحياة في ايطاليا ، ولا يستقيم مع عقلية الشعب الايطالي ، بل أخذ هذا النظام ينفخ في الشعب الايطالي حتى أوجد منه جسماً مكبراً مملوءاً بالهواء لا يحتوي على شيء غير الوهم ودجل الزعماء . فذهبت ايطاليا ضحية قائد مجنون لم يعرف نفسية الشعب الذي يتولاه .

فمن الخطر على النظم الاجتماعية وعلى العدالة ذاتها أن تستقبل الأمم دعوة انقلابية جديدة وهي في حالة نفسية غير مستقرة . فالعالم الآن في حالة دوار نتيجة الحرب الأخيرة ، وفي حيرة وقلق وتردد وتشكك . فليس من العدالة الانسانية أن يبدأ دعاة الانقلاب بدء مبادئهم تحت ستار النظريات الاقتصادية أو الاجتماعية الجديدة ، لأن العالم في هذه الفترة

التي اعيش فيها مصاب بدوار شديد ، وقلق مرير ، وحيرة مترددة ، فهو في حالة غير مستقرة لا يستطيع معها أن يتبصر الأمور أو يمتحن منها خيرها أو شرها .

فهؤلاء الدعاة الذين يسمون أنفسهم بما شاءوا من ألقاب ، فيدعون لازالة شرور الحياة من حرب وفقر ، انما هم في الحق قوم يدجلون ويماطلون الامم ويتربصون بها وهي في حالات نفسية قلقة . لانهم لن يستطيعوا محو الفقر والحرب لان الخير والشر عنصران متلازمان في الحياة لا يمكن محو واحد منهما .

فالعيوب التي نراها في الحياة انما هي قوانين ملازمة لقوانين مضادة لها . فهي كالسلب يقابله ايجاب . أو بعبارة أخرى هي كالتيار الكهربائي لا بد لانتاجه من تفاعل بين شيئين متضادين . فاذا انفرد الخير في الحياة كانت الحياة أنشودة تعلو الى السماء لا تستطيع أن تسير على الأرض في ثبات وقوة . وكذلك اذا استبد الشر بالحياة كانت الحياة جحيماً لا يطاق .

فمن العبث أن نحاول محو الحرب أو الفقر . ولكن من الواجب الانساني أن نصرف جهودنا وما فينا من نزعات للخير الى معالجة أثر الفقر وتخفيف ويلاته . وان نؤجل دائماً نزعات الحروب ونبعدها قدر الطاقة عن طريق الحياة . وان نثير في الناس عوامل الخير والمحبة، وأن نعمل على مقاومة الأثرة والانانية . فواجب علينا أن نعالج أثر الفقر ، ولكن لن نضيع جهودنا في الادعاء بمحو الفقر ، فلن تستطيع قوة بشرية ازالة نظام طبيعي مقرر في كيان نظام الحياة . فالحياة لن تستطيع أن تسير إلا بتباين الطبقات واختلاف المواهب والمقدرة على الانتاج ، والتساوي في هذه الحال حكم غير بريء لا يتفق مع العدالة الاجتماعية نفسها .

* * *

وكذلك الحرب ويل وشر ومقت وجوع ودم وانتقام . ولكن لا مفر للحياة منها . قد رأينا وقرأنا أن العالم لا يكاد ينتهي من حرب حتى يتجه الى حرب جديدة تأتي من طريق الذين قاوموها وقاسوها . بل ان الدعوة الى السلام عمل شاذ في ذاته ، وان كان جميلاً في دعوته . ودعوة السلام قد تؤدي الى حرب ، لانها دعوة لا تطيقها طبيعة الحياة المنطوية على الانانية والسيطرة والحقد والاضداد جميعاً .

فالحياة مجموعة أضداد لا شك في هذا ، وهي تسير وفق التفاعل المستمر بين كل ضدين. ولقد أصبحت هذه الأضداد شرائع تسير عليها الحياة ، فالذين يريدون أن يخلقوا من هذه الشرائع شريعة واحدة ذات صيغة واحدة ، انما يعالجون جانباً من الحياة دون جانب آخر . فالمصلح أو السياسي الذي يدّعي انه يعالج محو الاجرام أو الحرب أو الفقر ، انما هو رجل نظري أو فيلسوف لا أثر للحياة العملية في تفكيره إلاّ من حيث الشكل فقط .

* * *

فالذين يدعون الى محو الحرب يغالطون أنفسهم ويغرّرون بالناس جميعاً ، والذين بدءوا في أوروبا دعوتهم الاقتصادية المشتركة قد فشلوا وهم يسيرون الآن دون وعي منهم الى توطيد الملكيات الفردية وهدم ما قال زعماؤهم بالأمس ، بل انهم يتكلمون في صراحة عن وحي لتفكير امبراطوري قائم على الغلبة والسيطرة . وهذا يتنافى مع طبيعة دعوتهم الاشتراكية الاولى التي بدءوها منذ أعوام . والذين يبشرون بزوال الحروب نراهم في قلق من دعوتهم فيدعون الى سلام مسلح ! . فاذا كان السلام لا يعيش على الارض إلاّ في حماية السلاح والدبابة والطائرة والغواصة والقنبلة الذرية ؟ فأي سلام هذا الذي يرفرف على الحياة ؟

* * *

فالعالم يعيش في هذا العصر في حالة حيرة وتردّد ودوار مما أصابه من ويلات حرب دامت سنوات طويلة . العالم الآن مريض يعاني الآلام المختلفة وقد أصاب سوء الظن جميع زعمائه فلم يعد واحد يثق في الآخر . ولم يعد واحد منهم يستطيع أن يتجرد من النزعات الانسانية التي بدأت بها الحروب الماضية . فهل من الخير للعدالة والانسانية أن يقوم نفر من الدعاة للتبشير بمبادىء جديدة لا يستطيع العالم الحائر المريض المتردد أن يفكر فيها ، وان يفحص وجهي الخير والشر منها ؟ . ليس من شك في أن هؤلاء الدعاة هم أخطر العوامل التي بدأت تهدم في كياننا الاجتماعي وواجبنا أن نقاوم هذه الدعوات وان نعمل على علاج ما أصابنا من أمراض قبل أن يفتك بنا المرض ويتسع علينا الأمر .

محمود الخفيفي